الرّسُولُ الأكرَم صلى الله عليه وآله

قائِدٌ ومُعلِّم

٦١

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

الشؤون الفكرية والثقافية

الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

قائد ومعلم

الكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

الشؤون الفكرية والثقافية

١٤٣٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ

آل عمران : الآية – ١٤٤

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيّدنا ونبيّنا أبي القاسم محمّد بن عبد الله وعلى آله الطيّبين الطاهرين..

لما كانت النبوة هي القيادة العامة في أمور الدين والدنيا والتي أرادها الله لهداية الناس أجمعين.. كان النبي ﷺ هو القائد العام للبشرية، والدين هو النظام العام لبناء المجتمعات، وقيادة الأنبياء ليست محاولة للسيطرة المجردة وإنما هي رداء وكرامة يهبها الله لهم فتؤهلهم لنشر الرسالات السماوية على أوسع مساحة في المجتمعات وتأمين حاجات الأمم العقلية والجسدية بشكل شامل وتوفير السعادة في الدارين.

فالأنبياء هم قادة على مستوى عالٍ لا يدانيهم أحد، وأبعاد تأثيرهم أشمل وأعمق من غيرهم، لأنهم متصلون بوحي السماء وأفعالهم تنم عن إرادة الله والأخلاق والنظم التي يريدها الباري عز وجل للبشرية.

فالنبي محمد ﷺ لم يكن فردا عاديا قبل تكليفه بالنبوة وإنما كان متميزا لا يقاس به أحد إلا تفوق عليه كما تدل على ذلك سيرته ﷺ قبل البعثة، فامتلك من الصفات والمؤهلات ما افتقر إليها غيره، فهو الصادق الأمين والحاكم العادل يوم لا حكم إلا السيف في العصر الجاهلي.

لقد كان رسول الله محمّد بن عبد الله ﷺ الأنموذج الإنسانيّ المتكامل الذي اجتمعت في شخصيّته كلّ الصفات والخصائص والقيم الإنسانيّة والإلهيّة، فهو رجل العلم والفضل والعقل والكمال، ومثال الحكمة والوقار والجلال، عارف حكيم تقيّ شجاع حازم، وهو الرجل المعصوم من الخطأ المبرّء من الزلل، أكمل الخلق وأفضلهم وأعظمهم أخلاقاً، لا ترى في أعماله أيّ خلل أو ضعف، ولا في تصرّفاته وسلوكه أيّ تشتّت أو تناقض.

وقد اتسع قلبه لآلام الناس ومشكلاتهم، فجاهد في الله حقّ جهاده، ووقف بحزم وثبات وقوّة في وجه القوى الجاهلية، الوثنيّة واليهوديّة، من أجل العدالة والحريّة والمحبّة والرحمة، ومن أجل مستقبلٍ أفضل للإنسانية جمعاء.

ولأجل ذلك فقد جعله الله قدوة وأسوة للناس جميعاً، وفرض عليهم أن يقتدوا به وأن يتّبعوه في كلّ شيء؛ حتّى في جزئيّات أفعالهم فقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾[1].

(١) المائدة: ٦٧.

القائد المثالي

كان رسول الله ﷺ عظيماً في أخلاقه الشخصيّة والاجتماعيّة، وعظيماً في خُلُقه السياسيّ كرجل دولة، وهو جدير بأن يكون مثلا أعلى للساسة والقادة والملوك في كل زمان إذا ما أرادوا أن يثبتوا أركان دولتهم ويقوّوا أعمدة سلطانهم لأن الرسول الأعظم ﷺ قد ملك الناس بأخلاقه الكريمة لا بأمواله أو حسبه ونسبه والتي أصبحت هذه الأشياء هي المعيار لسياسيي هذا الزمان إذ أعطى رسول الله ﷺ مفتاحا سحريا لاستيعاب الناس وكسب رضاهم قائلا: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»[1]، وهذه بعض ملامح سلوكه القياديّ وأخلاقه السياسيّة:

١- العدل والتدبير:

كان ﷺ عادلاً حكيماً مُدبِّراً، وقد روى الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كان رسول الله ﷺ يُقسِّم صدقة أهل البوادي في أهل البوادي، وصدقة أهل الحضر في أهل الحضر»[2].

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ٦٨ ص ٣٨٣.

(٢) الكليني، الكافي ج٣، ص ٥٥٤.

واستطاع بحكمته وتدبيره الحدّ من العداوات والأحقاد والبغضاء والحروب التي كانت سائدة بين القبائل، فالعدل أساس الملك فإذا انتشر العدل فلا نجد إنسانا يشتكي ظلامة أو يشعر بالغبن وضياع حقه لأن تلك الأمور لو وجدت فستزرع الأحقاد والبغضاء بين الناس وتنتشر الحروب والمواجهات هنا وهناك.

٢- حماية القوانين:

عرف الرسول الأكرم ﷺ كيف يتعامل مع مجتمع موغل با لجاهلية إذ بدأ معهم في ترتيب أمور حياتهم ومتابعة شؤونهم ومع الوقت أخذ يشرع لهم تعليمات وقوانين تضمن حقوق ا لجميع ونصرة المستضعفين والاقتصاص من الظالم كلما لزم الأمر من دون أن يفرّق بين سيد قرشي وعبد حبشي.

لقد حرص على حفظ النظام العامّ، ورعاية التشريعات الإسلاميّة وحمايتها وعدم مخالفتها، ولم يُجامِل أحداً فيما يعني تطبيق الشريعة وإنزال العقوبة بالمُذنِب كائناً من كان.

ففي فتح مكّة ارتكبت امرأة من بني مخزوم جريمة السرقة، وثبتت السرقة عليها من الوجهة القضائيّة، لكنّ قومها الذين كانت الترسُّبات القبليّة ما تزال تعشّش في أدمغتهم، رأوا أنّ إنزال العقاب بها يخدش مكانتهم ويُلحق العار بشرفهم،

فبذلوا جهدهم وتوسّطوا لعلّهم يستطيعون رفع العقاب عنها، وأرسلوا أسامة بن زيد- الذي كان موضع احترام عند النبيّ ﷺ مثل أبيه - وسيطاً يتشفّع لها عند النبيّ، فغضب النبيّ ﷺ وقال له: "ما هذا محلّ شفاعة"، وأصدر أمره ! بإنزال العقوبة بها وإجراء حدود الله.

ولكي يُزيل عن أذهان الناس فكرة المحاباة في تطبيق التشريع وإقامة حدود الله، خطب ﷺ في الناس ذلك اليوم مُشيراً إلى هذه الحادثة، ذاكراً أنّ الأقوام والأمم السابقة قد بادت وانقرضت لأنّها لم تعدل في إجراء الحدود، فعندما كان أحد أفراد الطبقات العليا يرتكب جُرماً كان يُعفى من العقاب، وإذا ارتكب أحد أفراد الطبقة الدنيا جريمة مماثلة عوقب عليها، ثمّ أقسم أنّه ﷺ لا يتساهل في إجراء حدود الله حتّى على أقرب المقرّبين إليه، ولم يكن يرى نفسه ﷺ أنّه فوق التشريع، بل إنّه التزم وطبّق بدقّة ما ألزم به المجتمع.

٣- الوفاء بالعهود والمواثيق:

وهو من الأمور المهمة التي تعطي أعلى درجات المصداقية لدى الطرف المقابل ويدفع باتجاه انتشار الاطمئنان بين الراعي والرعية والتخلص من أزمة عدم الثقة التي انتشرت في عصرنا هذا - سواء كان على مستوى الأفراد أو على مستوى

الحكومات - بسبب عدم الالتزام بالعهود والاتفاقات المبرمة.

فلم يحدث إطلاقاً أن أخلّ ﷺ بعهوده التي أبرمها مع الآخرين بل حتى مع أعدائه، وقد أخلّت قريش بعهدها معه، وأخلّ اليهود بعهودهم ومواثيقهم، ولكنّه لم يخلّ أبداً بعهده معهم.. ولهذا نجد أن الكثيرين قد دخلوا الإسلام لما رأوا صدق نبي الله واطمأنوا لهذا الدين الذي يلزم الجميع بإيفاء الوعود وعدم مخالفة العهود والمواثيق التي تبرم مع الأطراف السياسية أو الاجتماعية أو حتى مع الفرد البسيط الذي ليس له ظهير في هذا العالم إلا الله.

٤- احترام الآخرين:

وهو المبدأ الخُلُقيّ الذي اتّبعه النبيّ ﷺ مع زعماء الدول الذين لم يكونوا على دينه، ففي الرسائل التي بعث بها الرسول الأعظم ﷺ إلى زعماء العالم آنذاك، نجد أنّ النبيّ ﷺ رغم تصلُّبه وتشدُّده في ذات الله، قد طبّق مبدأ الاحترام مع هؤلاء عندما خاطب كسرى بـ«عظيم فارس» وقيصر بـ«عظيم الروم»، وذلك من أجل أن يكشف لهم أنّ الإسلام هو الدين الذي جمع كلّ المبادئ السامية والقيم الأخلاقيّة.

٥- النظرة الثاقبة:

إنّ المطلع على سيرة الرسول ﷺ يرى أنّ الله تعالى أعطاه من بُعدِ النظرِ ما لم يُعطِ غيره، فقد نقل المؤرخون بُعدَ نظره يوم وضعت قريشٌ الشروط لصلح الحديبية، إذ رأى بعض أصحابه أنّ في هذه الشروط إجحافاً بالمسلمين، ورأى فيها رسولُ الله ﷺ . بما آتاه الله من بُعدِ النظر. النصرَ للمسلمين، ورأى أنّ قريشاً بوضعها هذه الشروط إنما تحفُر قبرَها بيدها، وتكتب دمارَ أطروحتها بقلمها، لكن جبهة الرسول كانت هي المنتصرة في نهاية المطاف كما أخبرهم منذ بداية الأمر فلو كان من حوله يؤمنون بنبوته قطعا ويوقنون برسالته.. ما شك أحد بكلامه ووجهة نظره فهو لا ينطق عن الهوى أبدا.

كما نجد بُعدَ نظره في تألُّفه عبد الله بن أبيّ بن سلول. وكان ذا شوكة. يوم قَيْنُقاع ويوم بني النضير ويوم بني المصطلق، وبقي رسولُ الله ﷺ يتألّفه حتّى انكشف نفاقُه، وظهرت عداوته للإسلام والمسلمين، فجعل قومه بعد ذلك إذا أساءَ الإساءة هُمُ الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنِّفونه.

الأسوة الحسنة

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، وكان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلامة طبع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي وإمداد الوحي.

- كان في غاية الحلم، والعفو عند المقدرة، والصبر على المكاره، صفاتٌ أدبه الله بها، استوعب ﷺ جميع الناس بقلبه الرؤوف فلم يزدد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً، وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضاً.

- كان من صفته غاية الجود والكرم، كان يعطي عطاءً من لا يخاف الفقر، ما سُئل شيئاً قط فقال: لا.

- كان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يُجهل، كان أشجع الناس، رجل المواقف الصعبة، فرّ عنه الكماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا

يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فَرَّة، وحفظت عنه جولة سواه، قال الإمام علي عليه السلام: كنا إذا حمي البأس واحمرت الحَدَقُ، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه.

- كان أشد الناس حياءً وإغضاءً، قال أبو سعيد الخدري: كان أشد حياء من العذراء في خِدْرها، وإذا كره شيئاً عرف في وجهه، وكان لا يثبت نظره في وجه أحد، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس، وكان لا يسمي رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه، بل يقول: «ما بال أقوام يصنعون كذا» ليربي الأمة على اجتناب الغيبة والنميمة وليبين أنهما من الصفات المذمومة.

- كان أعدل الناس، وأعفهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له بذلك مجاوروه وأعداؤه، وكان يسمى قبل نبوته الأمين، ويُتَحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام.

- كان أشد الناس تواضعاً، وأبعدهم عن الكبر، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك، وكان يعود المساكين،

ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس في أصحابه كأحدهم.

- كان أوصلهم للرحم، وأعظمهم شفقة ورأفة ورحمة بالناس، أحسن الناس عشرة وأدباً، وأبسط الناس خلقاً، أبعد الناس من سوء الأخلاق، لم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا لعاناً، ولا صخابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، وكان لا يدع أحداً يمشي خلفه، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس، ويخدم من خَدَمَه، ولم يقل لخادمه أف قط، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه، وكان يحب المساكين ويجالسهم، ويشهد جنائزهم، ولا يحقر فقيراً لفقره.

وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً، كان دائم البشر، سهل الخلق، لين ا لجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحداً، ولا يعيّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه.

مدرسة الرسول الأعظم ﷺ

كانت وما زالت مدرسة النبي محمد ﷺ هي منار هدى لكل طالب للسمو الإنساني فمصدر منهاج تلك المدرسة هو الوحي والإلهام الإلهي، قدمت للبشرية أسمى وأفضل منهج للتكامل الإنساني وتهذيب النفس وإصلاحها، تدعو الإنسان إلى أن يتجه بروحه إلى الكمال وإلى المراتب الفاضلة والتحلي بالأخلاق الكريمة التي ترفع من مرتبته وتجعله إنسانا متكاملا وقد انفردت هذه المدرسة بسمات عدة نوجزها بما يأتي:

١- بأمر الله تعالى أسس الدين الخالد الذي من ينبوعه تأسست مبادئ الأخلاق الكريمة الفاضلة على يد أكبر وأعظم شخصية أخلاقية في التاريخ محمد ! الذي وصفه خالقه ومربيه في كتابه العزيز بقوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١).

(١) القلم: ٤.

ودعوة الأمة الإسلامية إلى اتباع هدي الرسول ﷺ. يقول جل وعلا:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (١).

وهذه الأسس الأخلاقية تضمن للبشرية السعادة والرخاء والأخوّة الصادقة، كما هي وسيلة للسعادة في الدارين وهي في الوقت نفسه وسيلة فعالة للتقريب بين الأمة الإسلامية وتجسيد وحدتها.

٢- إن أهم عوامل انتشار الإسلام تكمن في حسن أخلاق الرسول ﷺ ومن بعده أهل بيته عليهم السلام وأصحابه المنتجبين والدعاة المخلصين، قال الله عز وجل مبينا سر انتشار الإسلام وكثرة أتباعه مخبرا رسوله الكريم ﷺ صاحب الأخلاق الكريمة:

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٢).

وكان ﷺ يذم سوء الخلق فيقول: «سوء الخلق شؤم وشراركم أسوَؤُكم خلقا» وقال أيضا: «أكثر ما تلج به أمتي الجنة، تقوى

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

الله وحسن الخلق» وقال أيضا: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

٣- حياة الرسول الأعظم ﷺ كانت مثالا وأنموذجا واضحا للحياة الإسلامية فهو الإنسان الكامل المختار من قبل الله عز وجل لإيصال رسالته الخالدة والخاتمة إلى الناس أجمعين، وهو المرسل رحمة للعالمين قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١)

وهو الإنسان النموذجي والمربي المرشد لأتباعه وللإنسانية جمعاء وإرشاداته القيمة كانت تشمل جميع الناس في السلم والحرب فالرسول عليه ﷺ هو ذروة الإنسان الكامل وأحسن الناس خَلقا وخُلقا .

يؤكد سيد المربين محمد ﷺ أهمية الأخلاق الكريمة في بناء الإنسان الكامل، مبينا سر بعثته إلى الناس فيقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

(١) الأنبياء: ١٠٧.

الرسول ﷺ والتربية القرآنية

حرص الرسول الأكرم ﷺ على تربية الأمة تربية قرآنية من خلال توجيههم وتعليمهم كيفية التعامل مع بعضهم البعض، فقد كان ﷺ خلقه القرآن الكريم ولا يخفى على أحد أن الله سبحانه وتعالى قد وضع منهجا كاملا وخالدا في التربية النفسية والخلقية والاجتماعية، الذي يكفل إصلاح الفرد وقيام مجتمع رفيع كريم نقي وسليم من كل النواحي، كما يكفل صيانته واستمراريته قويا نظيفا، فيه يتعاون الضمير الحي المؤدب مع التشريع الإلهي كما يتعاون فيه الفرد مع نظم الدولة وإجراءاتها، ويكفل للمجتمع وحدته.. ومنها في آياته البينات:

١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١)

هذه الآية الكريمة تعلم المؤمنين طريق التثبت من الأقوال والأفعال والتأكد من مصدرها قبل الحكم عليها أو الإعلان عنها، وهذا مبدأ أخلاقي أساسي لما يجب أن يكون فيه الإعلام

(١) الحجرات: ٦.

الإسلامي أولا كما يوجب على كل أفراد المجتمع الإسلامي التثبت في الأقوال والأفعال التي يروجها المروجون، وأن يكون الإعلام في الإسلام مبرّأ من نشر الأكاذيب والافتراءات والتشهير الذي سيؤدي إلى الشقاق بين المسلمين وبين الأسر، وبين الأزواج كما تبين الآية عاقبة عدم التأكد من الخبر وهو الندم وإفساد العلاقات كما يؤثر عدم التثبت على الوحدة وتماسك الأمة.

٢- ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١)

هذه الآية الكريمة فيها دعوة كريمة أخلاقية ورائدة تبين أوجه العلاج الصحيح إذا وقع خلاف واقتتال بين المؤمنين، حرصا على وحدة الأمة الإسلامية، ألا وهي الإسراع إلى إقامة الصلح بين المتقاتلين وإزالة الجفوة التي بينهما بالتي هي أحسن، ومناصرة الحق والعدل في الحكم وإقرار السلام والأمن وإعادة المياه إلى مجاريها.

(١) الحجرات: ٩.

٣- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١)

هذه الآية الكريمة تبين حقيقة العلاقة بين المسلمين وهي كون المسلمين أيا كانوا وأين ما كانوا إخوة في الله، والحفاظ على هذه الإخوة التي فرضها الله واجب على المجتمع الإسلامي كله، والله سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين بإزالة الخلاف بين المتخاصمين وإعادة المودة والتراحم بينهما، وذلك حرصا على سلامة المجتمع الإسلامي ووحدته.

٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢)

تنهى هذه الآية الكريمة عن السخرية والاستهزاء أيّا كان نوعه لأنها من الأخلاق الذميمة التي تسيء إلى الفرد كما تنهى عن اللمز والتنابز بالألقاب؛ وهي ذكر بعض الأفراد

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) الحجرات: ١١.

بلقب السوء الذي يكرهه وهذه العادات هي من عادات الجاهلية لها جوانب سيئة وسلبية في المجتمع . لذا نهى الله عنها حفظا على سلامة المجتمع وحرصا على تجسيد المعاملة الطيبة الأخوية المتساوية.

٥- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (١)

تدعو هذه الآية الكريمة المؤمنين إلى الابتعاد عن الأسباب التي تؤدي إلى التباغض والعداوة حتى لا يقع بين المسلمين ما يعكر صفوة العلاقات الأخوية أو يضعف ما بينهم من المودة والترابط والتراحم، إن تعاليم هذه الآية الكريمة هي الإبقاء على الوحدة الإسلامية والمودة والترابط فيما بين الأسرة والمجتمع ويأمر الله تعالى:

أ- الابتعاد عن الظن ويحذر من عاقبة سوء الظن وكون سوء الظن بالإضافة إلى أثره السيئ في روح صاحبه وحياته يكون سببا لقطع أواصر الأخوة وتوتر العلاقات.

ب- ألا يتجسس المؤمن على أخيه المؤمن.

(١) الحجرات: ١٢.

ت- ألا يغتاب المؤمن أخيه المؤمن مبينا حقيقة الغيبة وكونها من أقبح الصفات في جملة واضحة وكافية وصف فيها الخالق المغتاب كالذي يأكل لحم أخيه ميتا وهو عمل مشين تشمئز منه الأنفس: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه» إذ إن الذي يغتاب الناس هو آكل لحم أخيه ميتا وهذا التمثيل كفيل من أن يجعل المؤمن بعيدا عن هذه الطبيعة الكريهة التي تحطم صرح الفضيلة وتفقد الإنسان مكانته وتجعله منحط المنزلة، وبعد التوجيه الإلهي يعظنا الله سبحانه وتعالى ويأمرنا بالتقوى كما يبين لنا أنه تواب رحيم.

٦- ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١)

هذه الآية الكريمة تهتف بالإنسانية جمعاء على اختلاف أجناسها وتباعد أنصارها لتردها إلى أصل واحد وإلى ميزان واحد وأن الله جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعرف بعضهم على بعض، ويؤاخي كل منهما الآخر ويتعاون ويعمر الأرض ويعبد الله وحده، وأن الميزان الذي يقوم به الإنسان هو خشية الله والعمل الصالح والله يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية، يقول الرسول الأعظم ﷺ في هذا الصدد: «ليس لعربي على

(١) الحجرات: ١٣.

أعجمـي ولا لأعجمي على عربي فضل إلا بالتقوى» وهذا هو الدستور الإلهي لتحقيق وضمان حقوق الإنسان أيّا كان.

إن هـذه الآيـات الكريمـة تمثل الهدف السـامي مـن أهداف التربيـة الخلقيـة الإسـلامية الـتي جـاء بهـا القـرآن الكريم وعلّـم الرسـول ﷺ الناس أهدافهـا لإصلاح الفـرد والمجتمع والحكومات، كما تبين آداب السـلوك وحسن المعاملة والحرص على تقوية أواصر الأخوة والمودة والتعاون والوحدة الشاملة.

أحاديثه ﷺ في تصحيح العقيدة

حرص النبي الأعظم ﷺ على توجيه المسـلمين نحو عقيدة حقّـة يمكن من خلالها معرفة الصراط المسـتقيم وذلك عبر أحاديثه الشريفة، ومنها:

١-الخالق لا يوصف:

«إنّ الخالق لا يوصف إلاّ بما وصف به نفسه، وكيف يوصف الخالـق الـذي تعجـز الحـواس أن تدركـه، والأوهـام أن تناله، والخطـرات أن تحـدّه، والأبصـار عـن الإحاطة به ؟ جـلّ عمّا يصفـه الواصفون، ناء في قربـه، وقريب في نأيه، كيّف الكيفيَّة فـلا يقـال له كيف؟ وأيَّن الأين فلا يقال لـه أين؟ هو منقطع الكيفوفيَّـة والأينونيَّـة، فهو الأحد الصمد كما وصف نفسـه، والواصفون لا يبلغون نعته، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[1].

(١) بحـار الأنـوار : ٢ / ٩٤ ، الكفايـة ، أبـو المفضل الشـيباني عن أحمد بن مطـوق بن سـوار عن المغـيرة بن محمد ابن المهلـب عن عبد الغفـار بن كثير عن إبراهيـم بـن حميد عن أبي هاشـم عن مجاهد عـن ابن عباس قـال: قدم يهودي على رسـول الله ﷺ ، يقال له: نعثل. فقال: يا محمد إني أسـألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فإن أنت أجبتني عنها ، أسـلمت على يدك. قال: سـل يا أبا عمارة! فقال: يا محمد صف لي ربك. فقال:... «الحديث».

٢- شروط التوحيد:

«إذا قال العبد: «لا إله إلاّ الله» فينبغي أن يكون معه تصديق وتعظيم، وحلاوة وحرمة، فإذا قال: «لا إله إلاّ الله» ولم يكن معه تعظيم، فهو مبتدع. وإذا لم يكن معه حلاوة فهو مراء. وإذا لم يكن معه حرمة فهو فاسق»[١].

٣- رحمة الله:

«إن رجلين كانا في بني إسرائيل، أحدهما مجتهد في العبادة والآخر مذنب، فجعل يقول المجتهد: أقصر عمّا أنت فيه، فيقول: خلّني وربي، حتى وجده يوماً على ذنب استعظمه، فقال: أقصر، قال: خلّني وربي، أبُعثت عليّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة، فبعث الله إليهما ملكاً، فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ فقال: لا يا ربّ. قال: اذهبوا به إلى النّار»[٢].

٤- لا جبر ولا اختيار:

«إنّ الله لا يطاع جبراً، ولا يعصى مغلوباً، ولم يهمل العباد

(١) كلمة الرسول الأعظم ﷺ: ٣٠ .

(٢) كلمة الرسول الأعظم ﷺ :٣١.

من المملكة، ولكنه القادر على ما أقدرهم عليه، والمالك لما ملّكهم إياه; فإن العباد إن ائتمروا بطاعة الله لم يكن منها مانع، ولا عنها صاد، وإن عملوا بمعصيته فشاء أن يحول بينهم وبينها فعل، وليس من شاء أن يحول بينك وبين شيء ولم يفعله، فأتاه الذي فعله كان هو الذي أدخله فيه»[١].

٥- النبوة الخاتمة:

«فُضِّلت على الأنبياء بستّ: أُعطِيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب من مسيرة شهر، وأُحلّت لي الغنائم. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأُرسِلت إلى الخلق كافّة وخُتم بي النبيّون»[٢].

٦- اصطفاء الله:

«إن الله اصطفى من وُلد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، قال الله تبارك وتعالى: لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءُوف رحيم»[٣].

٧- الغيث :

(١) بحار الأنوار : ١٤٠/٧٧.

(٢) المصدر السابق : ٣٢٤/١٦ .

(٣) كلمة الرسول الأعظم ﷺ: ٣٥ . راجع بحار الأنوار: ٣٢٣/١٦.

«إنّ مثل ما بعثني به ربّي من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، منها طائفة طيّبة، فقبلت الماء فأنبتت العشب والكلأ الكبير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنّما هي قيعات، لا تمسك ولا تُنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، وتفقّه فيما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي اُرسِلت به»[1].

٨- الإمام بعد رسول الله ﷺ:

«يا عمّار! إنّه سيكون بعدي هنات، حتى يختلف السيف فيما بينهم، وحتى يقتل بعضهم بعضاً، وحتى يبرأ بعضهم من بعض، فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني: عليّ بن أبي طالب، فإن سلك الناس كلّهم وادياً، وسلك عليّ وادياً فاسلك وادي عليّ، وخلّ عن الناس.

يا عمّار! إن عليّاً لا يردّك عن هدى، ولا يدلّك على ردى.

يا عمّار! طاعة عليّ طاعتي، وطاعتي طاعة الله»[2].

وقال ﷺ: «من ظلم عليّاً مقعدي هذا بعد وفاتي، فكأنّما جحد نبوّتي، ونبوّة الأنبياء قبلي»[3].

(١) بحار الأنوار: ١/١٨٤.

(٢) مجمع البيان: ٣ / ٥٣٤ ، روى أبو أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ قال لعمار بن ياسر: ...«الحديث».

(٣) المصدر السابق: ٣ / ٥٣٤ ، عن كتاب شواهد التنزيل للحاكم أبي

٩- أئمة الحق عليهم السلام:

«الأئمة بعدي من عترتي بعدد نقباء بني إسرائيل، وحواريي عيسى، من أحبهم فهو مؤمن ومن أبغضهم فهو منافق، هم حجج الله في خلقه وأعلامه في بريّته»[1].

وقال ﷺ: «يا علي عليه السلام أنت الإمام والخليفة بعدي، وأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضيت فابنك الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى الحسن فالحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى الحسين فابنه عليّ بن الحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى عليّ فابنه محمّد أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى محمّد فابنه جعفر أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى جعفر فابنه موسى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى موسى فابنه

القاسم الحسكاني عن أبي الحمد مهدي ابن نزار الحسني حدثني محمد بن القاسم بن أحمد عن أبي سعيد محمد بن الفضيل بن محمد عن محمد بن صالح العرزمي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن أبي خلف الأحمر عن إبراهيم بن طهمان عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية «واتقوا فتنة»: قال النبي ﷺ: ...«الحديث».

(١) كفاية الأثر: ١٦٦، أبو المفضل الشيباني عن أحمد بن عامر بن سليمان الطائي عن محمد بن عمران الكوفي عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن صفوان بن يحيى عن إسحاق بن عمار عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن أخيه الحسن بن علي عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ:...«الحديث».

عليّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى علي فابنه محمد أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى محمد فابنه عليّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى عليّ فابنه الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى الحسن فالقائم المهدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، يفتح الله به مشارق الأرض ومغاربها، فهم أئمة الحق، وألسنة الصدق، منصورٌ من نصرهم، مخذول من خذلهم)[1].

١٠- بشارته بالمهدي عليه السلام:

روى أحمد عن النبي ﷺ، أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً ثمّ يخرج من عترتي من يملأها قسطاً وعدلاً»[2].

وجاء عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال: دفع النبي ﷺ الراية يوم خيبر إلى علي ففتح الله على يده ثم في غدير خم أعلم الناس أنه مولى كل مؤمن ومؤمنة. وساق الحديث

(١) كفاية الأثر : ١٩٥ ـ ١٩٦ ، عن الحسين بن علي، عن هارون بن موسى عن محمد بن إسماعيل الفزاري، عن عبد الله بن الصالح كاتب الليث، عن رشد بن سعد ، عن الحسين بن يوسف الأنصاري، عن سهل بن سعد الأنصاري قال: سئلت فاطمة بنت رسول الله ﷺ عن الائمة فقالت: كان رسول الله ﷺ يقول لعلي: ... وروى نصّين آخرين عن جابر الأنصاري فراجع.

(٢) راجع مسند أحمد: ٣ / ٤٢٥ ، الحديث ١٠٩٢٠ .

وذكر شيئاً من فضائل علي وفاطمة والحسن والحسين إلى أن قال: «أخبرني جبرائيل أنهم يُظلمون بعدي وأنّ ذلك الظلم يبقى حتى اذا قام قائمهم وعلت كلمتهم واجتمعت الأمة على محبتهم وكان الشانئ لهم قليلاً والكاره لهم ذليلاً وكثر المادح لهم وذلك حين تغيّر البلاد وضعف العباد واليأس من الفرج فعند ذلك يظهر القائم المهدي من ولدي بقوم يظهر الله الحق بهم ويخمد الباطل بأسيافهم» . إلى أن قال: «معاشر الناس أبشروا بالفرج فإن وعد الله حق لا يخلف ، وقضاءه لا يرد وهو الحكيم الخبير وان فتح الله قريب»[1].

وعن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»[2].

وجاء عن حذيفة بن اليمان أنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر لنا ما هو كائن إلى يوم القيامة ثم قال: لو لم يبق من الدنيا الاّ يوم واحد لطوّل الله عزّ وجلّ ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلاً من ولدي اسمه اسمي، فقام سلمان وقال: يا رسول الله ﷺ إنه من أي ولدك؟ قال: هو من ولدي هذا» وضرب بيده على الحسين[3].

(١) ينابيع المودّة : ٤٤٠.

(٢) المصدر السابق : ٤٣٠ عن أبي داود في صحيحه: ٤ / ٨٧ .

(٣)عقد الدرر. الباب الأول عن أبي نعيم الحافظ

قبل الرحيل

في عام ١٠ هـ أمرَ الله تعالى نبيّه الكريم ﷺ أن يشارك في مراسم الحجّ، وكره النبي ﷺ خلال فترة الحجّ أن يمكث في دار أحد، ولذا فإنّه كان يأمر بضرب خيمة له خارج مكّة، وقصد النبي ﷺ عرفات في اليوم الثامن من ذي الحجّة عن طريق منى التي توقّف فيها إلى طلوع الشمس من اليوم التاسع، فركب بعيره نحو عرفات، ونزل في خيمة أُعدَّت له في نمرة، وألقى هناك خطاباً تاريخياً هاماً وهو على ناقته، في جموع بلغت أعدادها أكثر من ١٠٠ ألف.

وبدأ خطابه قائلاً: «أيّها النّاس اسمعوا قولي واعقلوه، فإنّي لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيّها النّاس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة».

وقد ألغى في هذا الخطاب عادات الثأر الجاهلية المشؤومة، مثل الانتقام، والخيانة، والربا، كما استوصى بالنساء خيراً.

ثم قال ﷺ: «ألا وإني قد تركت فيكم أمرين إن أخذتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني

اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، ألا فمن اعتصم بهما فقد نجا ومن خالفهما فقد هلك، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد».

الخلافة بعد النبي ﷺ

إنّ الظروف السائدة في تلك الفترة حتمت بأن يعيّن النبي ﷺ خليفةً له، وذلك لما كان عليه الوضع من تهديد العدو للدولة الإسلامية، فأوجب مواجهة الأخطار الخارجية بتعيين قائدٍ سياسي يمكنه السيطرة على الوضع، كما أنّ خطر حزب النفاق كان لا يزال له دوره في تقويض دعائم الكيان الإسلامي داخلياً، وقد بيّن القرآن الكريم دورهم التخريبي وخطرهم الأكيد في سور عدّة.

ولذا فإنّه مع وجود تلك الأخطار الخارجية والداخلية، التي كانت تنتهز الفرص للقضاء على الدولة الإسلامية الحديثة، فإنّه كان لابدّ من تعيين قائد ديني سياسي، يمكنه القضاء على ما يظهر من اختلاف وانشقاق بعده ﷺ في المجتمع الإسلامي، ويكون بذلك ضماناً لبقائه واستمراريته.

أنّ النبيّ ﷺ نصّ على خليفته مراراً، إذ لم ينص على خليفته ووصيه في أواخر حياته فحسب، بل بادر إلى ذلك في بدء الدعوة، وخاصة في الفترة التي أمره فيها سبحانه وتعالى بأن ينذر عشيرته الأقربين ويدعوهم إلى عقيدة التوحيد، حينما وقف خطيباً في أربعين رجلاً من زعماء بني هاشم: «أيُّكم يؤَازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟» فأحجم القوم و قام علي عليه السلام وأعلن مؤازرته له، فقال الرسول ﷺ: «إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»[1]، وعُرف هذا الحديث بحديث يوم الدار، وحديث بدء الدعوة.

كما أنّ حديث الغدير يُعدّ من أهمّ الأحداث والوقائع التي تؤكّد صراحة على خلافته عليه السلام إذ أنّه في الطريق إلى المدينة، بلغ موكب الحجّ العظيم رابغ[2] حيث نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ بمنطقة تدعى غدير خم و بلغه الآية التالية:

(١) تاريخ الطبري:٢|٢١٦؛ الكامل في التاريخ:٢|٦٢.

(٢) . تقع الآن على طريق مكة ـ المدينة، وتبعد عن الجحفة ثلاثة أميال، والتي هي من مواقيت الإحرام، وتتشعب منها طرق أهل المدينة ومصر والعراق.

﴿يا أَيُّهَا الرَّسُول بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ﴾[1]

وكان ذلك الأمر هو الإعلان عن خلافة الإمام علي عليه السلام أمام ١٠٠ ألف شاهد أو يزيدون.

وقال في خطابه: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً، كتابَ اللّه سببٌ، طرفٌ بيد اللّه، وطرفٌ بأيديكم، فتمسّكوا به؛ والآخر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا». ثمّ رفع يَدَ الإمام علي عليه السلام قائلاً: «يا أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: اللّه ورسوله ﷺ أعلم. فقال ﷺ: «إنّ اللّه مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه[2]، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبّه، و ابغض من أبغضه، وأدر الحقّ معه حيث دار».

(١) المائدة:٦٧.

(٢) كرر النبي ﷺ هذه العبارة ثلاث مرات دفعاً لأيّ التباس.

وبعد نزول الآية السابقة، والإجراءات التي أقدم عليها النبي ﷺ نزلت الآية:

﴿اليَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[1]

فكبّر النبي ﷺ بصوت عال وقال: «الحمد لله على إكمال الدّين، وإتمام النعمة، ورضا الربّ برسالتي، وولاية علي بن أبي طالب بعدي».

(١) المائدة: ٣.

الاختبار الأخير

كان خطرُ الروم أشدَّ الأخطار الخارجية، فاعتبره النبي ﷺ أمراً جدّياً لا يمكن التقليل من شأنه، لذا فإنّه أعدّ جيشاً كبيراً لمحاربتهم، حيث رأى بعد حجّة الوداع أن يُعدَّ جيشاً من المهاجرين والأنصار، واشترك فيه أشخاصٌ بارزون أمثال: أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص، وكلّ من هاجر إلى المدينة خاصّة، وأمر بقيادته أُسامةَ بن زيد، وقال له: «سِر إلى موضع مقتل أبيك، وأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش»[1].

وقد أرادَ النبي ﷺ بتعيين قائد صغير السنّ على هذا الجيش الكبير، أن يؤكّد أساس الكفاءة الشخصية في تولّي المناصب والمسؤوليات، فهي لا ترتبط بالسن والعمر، بل بالكفاءة والمؤهلات المطلوبة.

ولذا فإنّه لم يكن هناك مبررٌ لاعتراض البعض على تولّي قيادته من حيث السنّ وعمر الشباب هذا من جهة، ومن جهة ثانية لعل النبي ﷺ أراد أن يختبر الرجال في هذا الأمر ورؤية مَن سيطيع ومَن سيعترض.. لأنه من المفترض أن النبي في

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ٢١ ص ٤١٠.

أواخر أيامه وأن الوحي لرسالته السماوية سيتوقف والكل يجب أن يكون على يقين بنبوته من دون أدنى شك بعد هذه السنين التي عاشوها معه ﷺ، ولكن هؤلاء المعترضون غفلوا عن المصالح و الأهداف التي توخّاها الرسول ﷺ من هذا الإجراء، فقدّروا كلَّ عمل بعقولهم المحدودة، وقايسوها بمقاييسهم الشخصية، ممّا أثر ذلك في تأخير تحرك الجيش من معسكر الجرف[1].

مرض النبي ﷺ

بعد يوم من إعداد الجيش السابق، مَرِض النبي ﷺ بصداع شديد تركه طريحَ الفراش، وهو المرض الذي قضى فيه ﷺ، وقد علم الرسول ﷺ أنّ هناك من تخلّف عن الجيش، ومن يعرقل التوجه إلى موقعه، ومن يطعن في قيادة أُسامة، فغضب لذلك بشدّة وخرج معصّباً جبهته إلى مسجده، يحذرهم من عواقب أعمالهم غير السليمة وخاطبهم بقوله:

«لئن طَعنتم في إمارتي لأسامة، فقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله كان للإمارة خليقاً، وأنّ ابنه من بعده

(١) الجرف: على بعد ٣ أميال من المدينة نحو الشام.

لخليق للإمارة، وإنَّه كان لمن أحبّ الناس إليّ، واستوصُوا به خيراً فإنّه من خياركم».

ونظراً لأهمية هذا الجيش، فإنّ النبي ﷺ كان يقول وهو في الفراش: «جهّزوا جيش أُسامة، لَعَنَ الله من تخلّف عنه»[1].

وفي الوقت الذي استعدّ فيه أُسامة وآخرون من المهاجرين والأنصار للسير نحو الجرف، انتشر بينهم خبرُ تدهورِ صحّة النبي ﷺ ممّا جعلهم يعدلون عن قصدهم حتى يوم الاثنين، إلاّ أنّه ﷺ حثّه على الخروج قائلاً: «اغدُ على بركة الله»، فتهيّأ الجيشُ للتحرّك والمغادرة، إلاّ أنّ خبر احتضار الرسول ﷺ جعلهم يعودون إلى المدينة متجاهلين أوامرَ النبي ﷺ.

وقد ذكر المؤرخون أنّ النبي ﷺ خرج في الليلة التي توفّي في صبيحتها، مع الإمام علي عليه السلام إلى البقيع مع عدد آخر، فقال لهم: «إنّي أمرت أن استغفر لأهل البقيع»، وعندما وصل إلى المكان سلّم على أهل القبور قائلاً:

«السّلامُ عليكم أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه، أقبَلَت الفتن كقِطَع اللّيل المظلم يتبع بعضها بعضاً، يتبع آخرها أوّلها»، ثمّ التفت إلى الإمام علي عليه السلام وقال:

(١) الملل و النحل:١|٢٣؛ طبقات ابن سعد:٢|١٩٠.

«يا علي، إنّي خُيّرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها أو الجنة، فاخترت لقاء ربّي والجنّة، إنّ جبرائيل كان يعرض عليّ القرآن كلّ سنة مرّة، وقد عرضه عليّ العام مرّتين، ولا أراه إلاّ لحضور أجلي»[1].

الكتاب الذي لم يكتب

قرر الرسول ﷺ بهدف الحيلولة دون انحراف مسألة الخلافة عن شخصها المعيّن، والحيلولة دون ظهور الاختلاف و الافتراق، أن يعزز مكانة علي ! ويدعم إمارته وخلافته، وأهل بيته، بإثبات ذلك في وثيقة خالدة تضمن بقاء الخلافة في خطها الصحيح.

فعند زيارة بعض الصحابة له أثناء مرضه قال: «ائتوني بدواة وصحيفة، أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده»، فبادر أحدهم قائلاً: إنّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله[2] فكثر اللغط والنقاش حول إحضار ما طلبه النبي ﷺ أو عدمه، ممّا أغضب النبي ﷺ فقال: «قوموا عنّي لا ينبغي

(١) بحار الأنوار: ٢٢|٤٦٦؛طبقات ابن سعد:٢|٢٠٤.

(٢) الملل والنحل:١|٢٢.

عندي التنازع»، وقال ابن عباس: الرزية كلّ الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله[1].

وقد روى ابن حجر العسقلاني، أنّ النبي ﷺ قال لأصحابه وقد امتلأت بهم الحجرة وهو في مرضه: «أيّها الناس يوشك أن أُقبضَ سريعاً فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القولَ معذرةً إليكم، إلاّ أنّي مخلفٌ فيكم كتابَ الله ربّي عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي».

ثمّ أخذ بيد علي عليه السلام وقال: «هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، خليفتان نصيران لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض فاسألهما ماذا خلفت فيهما»[2].

ومن الواضح أنّ النبي ﷺ لفت الأنظار إلى حديث الثقلين مرّة أُخرى، برغم ما ذكره في مواضع متعدّدة، حتّى يؤكد أهمية الثَّقلين، وتدارك ما فات من كتابة الكتاب الذي احتج القوم على كتابته ومنعوه عنه.

وفي هذه اللحظات، طلب بعضاً من الدنانير كان قد وضعها عند إحدى زوجاته، وأمر علياً عليه السلام ليتصدّق بها.

(١) صحيح البخاري: ١|٢٢؛ صحيح مسلم: ٢|١٤؛ مسند أحمد:١|٣٢٥.

(٢) الصواعق المحرقة: ٥٧، باب ٩، كشف الغمّة: ٤٣.

اللحظات الأخيرة

أقبلت السيّدة الزهراء عليها السلام والحزن بادٍ عليها تتطلّع إلى أبيها وهو يوشك أن يلتحق بربّه، فجلست عنده مُنكسِرة القلب دامعة العين، ودنت منه فأخبرها ﷺ أنّه قد حضر أجله، وأنّه يُقبض في وجعه هذا، فبكت عليها السلام، ثمّ ما لبثت أن تلقّت البشرى منه ﷺ بأنّها ستكون أوّل أهله لحوقاً به[1].

وكان الإمام عليّ عليه السلام يُلازم الرسول ﷺ كظلّه، حتّى آخر لحظات حياته الشريفة، وهو يوصيه ويُعلّمه ويضع سرّه عنده.

في الساعة الأخيرة قال رسول الله ﷺ: «ادعوا لي أخي»، وكان ﷺ قد بعثه في حاجة فجاءه بعض المسلمين فلم يعبأ بهم الرسول ﷺ حتّى جاء الإمام عليّ عليه السلام فقال ﷺ له: «ادنُ منّي»، فدنا الإمام عليه السلام فاستند إليه، فلم يزل مستنداً إليه يُكلّمه حتى بدت عليه ﷺ علامات الاحتضار، وتوفّي ﷺ وهو في حِجْر الإمام عليّ عليه السلام كما قد صرّح بذلك الإمام عليه السلام نفسه في إحدى خطبه الشهيرة[2]. ترك الدنيا ﷺ يوم الاِثنين ٢٨

(١) الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٤٧؛ الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢١٩.
(٢) نهج البلاغة، خطبة ٢٣٠.

صفر سنة ١١ هجرية أي بعد مرور أكثر من شهرين على إعلان أمير المؤمنين علي عليه السلام خليفة للمسلمين.. ولا غرو في ذلك فقد عُرف النبي محمد ﷺ بحكمته البالغة وشعوره بالمسؤولية تجاه أي أمر يخص الإسلام والمسلمين مهما كان صغيرا.. فلا يُعقل أن يترك النبي ﷺ الدنيا من دون أن يعيّن من سيخلفه في إدارة أمور الدين وشؤون المسلمين خصوصا بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه الدولة الإسلامية على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والذي كلّف الكثير من العناء والشقاء للرسول والمسلمين.

وسُجّي ﷺ ببرد يماني، ووُضع في حجرته بعض الوقت، وارتفعت صرخات العيال، وعلا بكاء الأقارب، وانتشر نبأ وفاته في كلّ أنحاء المدينة التي تحولت إلى مأتم كبير.

وقام الإمام علي عليه السلام بغسل جسده الشريف وكفّنه، إذ أنّه كان قد ذكر: «يغسّلني أقربُ الناس إليّ»، ولمّا فرغ الإمام عليه السلام من غسله ﷺ كشف الإزار عن وجهه ﷺ وقال والدموع تنهمر من عينيه: «بأبي أنت وأُمّي، طبتَ حيّاً وطبتَ ميّتاً، انقطع

بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممّن سواك من النبوة والإنباء، ولولا أنّك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع، لأنفدنا عليك ماءَ الشؤون[١]، ولكان الداءُ مماطلاً، والكمَدُ محالِفاً وقلاّ لك[٢]، ولكنّه ما لا يُملَك ردّه ولا يستطاع دفعه، بأبي أنت و أُمّي.. اذكرنا عند ربّك واجعلنا من بالك»[٣]، وصلّى عليه مع المسلمين، ودفنه في حجرته المباركة.

وهكذا غربت شمس أعظم شخصية غيّرت مسار التاريخ البشري بتضحياته الكبرى وجهوده المضنية، وأعظم رسولٍ إلهيٍ فتح أمام الإنسانية صفحات جديدة ومشرقة من الحضارة والمدنية وتحول بمجتمع مترامي الأطراف لم يعرف غير الصحراء بيئة يتأثر بها إلى مجتمع حمل على عاتقه مع النبي وآله عليهم السلام هداية الناس وبنوا حضارة يشار إليها بالبنان فلا يمكن طمسها بأي حال من الأحوال.. وجزاء كل ذلك لم يطلب النبي أجرا على عنائه سوى مودة أهل بيته

(١) لأنفدنا أي لأفنينا على فراقك ماء عيوننا الجاري من شؤونه وهي منابع الدمع من الرأس.

(٢) مماطلا بالشفاء، والكمد: الحزن. ومحالفته ملازمته، وقلا فعل ماض متصل بألف التثنية، أي مماطلة الداء ومحالفة الكمد قليلتان لك.

(٣) نهج البلاغة للشريف الرضي ج٢ ص ٢٨٨.

ولطالما قال لهم: فانظروني كيف تخلفوني فيهم.. ولكن ماذا سيعتذر الذين قال فيهم الله عز وجل:

﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾

بينما وعد الله عز وجل من اتبعه ووالاه بقوله:

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا في زمرة الشاكرين وأن يُحسن عاقبتنا

بحق محمد وآله الطيبين الطاهرين إنه سميع مجيب

الفهرس

المقدمة.....٣
القائد المثالي ٥
الأسوة الحسنة ١٠
مدرسة الرسول الأعظم ﷺ ١٣
الرسول ﷺ والتربية القرآنية ١٦
أحاديثه ﷺ في تصحيح العقيدة.....٢٢
قبل الرحيل ٢٩
الخلافة بعد النبي ﷺ ٣٠
الاختبار الأخير ٣٤
مرض النبي ﷺ ٣٥
الكتاب الذي لم يُكتب ٣٧
اللحظات الأخيرة ٣٩

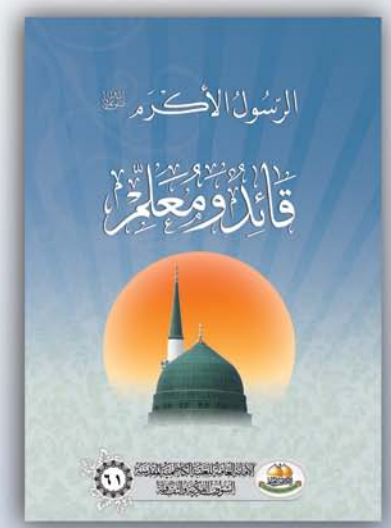

الأنبياء هم قادة على مستوى عالٍ لا يدانيهم أحد، وأبعاد تأثيرهم أشمل وأعمق من غيرهم، لأنهم متصلون بوحي السماء وأفعالهم تنم عن إرادة الله والأخلاق والنظم التي يريدها الباري عز وجل للبشرية.

فالنبي محمد ﷺ لم يكن فردا عاديا قبل تكليفه بالنبوة وإنما كان متميزا لا يقاس به أحد إلا تفوق عليه كما تدل على ذلك سيرته قبل البعثة، فامتلك من الصفات والمؤهلات ما افتقر إليها غيره، فهو الصادق الأمين والحاكم العادل يوم لا حكم إلا السيف في العصر الجاهلي.

كان رسول الله ﷺ عظيماً في أخلاقه الشخصيّة والاجتماعيّة، وعظيماً في خُلُقه السياسيّ كرجل دولة، وهو جدير بأن يكون مثلا أعلى للساسة والقادة والملوك في كل زمان إذا ما أرادوا أن يثبتوا أركان دولتهم ويقوّوا أعمدة سلطانهم لأن الرسول الأعظم ﷺ قد ملك الناس بأخلاقه الكريمة لا بأمواله أو حسبه ونسبه والتي أصبحت هذه الأشياء هي المعيار لسياسيّي هذا الزمان إذ أعطى رسول الله ﷺ مفتاحا سحريا لاستيعاب الناس وكسب رضاهم قائلا: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم).

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
زورونا www.aljawadain.org
الشؤون الفكرية والثقافية
راسلونا fikriya@aljawadain.org